تطور فكرة الإمبراطورية في العلاقات الدولية بين الواقع والافتراض

أ/ اليامين بن سعدون

أستاذ مساعد (أ) بـ جامعة قالمة

باحث بجامعة باتنة 1

liaminebensaadoune@yahoo.fr

ملخص:

تعود فكرة الإمبراطورية إلى العصر التاريخي القديم، كمفهوم سياسي للحكم واكتساب عوامل ومكوّنات القوة والبقاء، ويرتبط ذلك بالنشاط الإنساني الاقتصادي والاجتماعي، استهدفت في مكوّناتها حيازة القوة وتعظيمها، والتوسع الجغرافي عن طريق الإخضاع والغزو، لضمان الإمدادات البشرية والفلاحية والضريبية، كمقومات حيوية للحفاظ استمرارية بقاء الإمبراطورية وحمايتها. لم يتطوّر مفهوم الإمبراطورية وعوامل بنائها كثيرا في العصرين اللاحقين، الوسيط والحديث على الرغم من التطور الحاصل على مستوى الأنشطة الإنسانية (التجارة والصناعة) كمحفزات للتوسع والاحتلال، لكن التطور الحضاري للإنسان في الفترة المعاصرة وفي سعيّه لتعظيم المكاسب القومية ومكونات القوة، لم يعد يتم بالمفهوم الإمبراطوري النمطي القديم، فالتحوّل في مفهوم السلطة والقوة والإنتاج نقل فكرة الإمبراطورية المعاصرة إلى مفهوم افتراضي، يقوم على التواجد والانتشار والامتداد بتسخير عوامل بناء تعتمد المعرفة والتقنية، وتشجع وتبعث على التعاون أكثر من الصراع.

الكلمات المفتاحية: الإمبراطورية، القوة، تاريخ العلاقات الدولية.

Abstract:

The idea of the empire could be traced back to ancient historical periods, as a political concept of governance and a factor of power and survival, due to the economic and social human activity. This idea of empire construction targeted the possession of power and to maximize it, geographical expansion via subjugation and force, to ensure and guarantee the humanitarian, agricultural and tax supplies as a vital ingredient of empire surviving and protection. There has been no development neither of the empire concept itself, nor of its construction factors over the later ages (middle & modern); although, the high level of evolution marked in human activities (trade & industry) as catalysts to occupy and expand. However, the development of human civilization in the contemporary era, in looking for covering the national gains and power components, not done with ancient typical imperial concept, because of the transformation and change in authority, power and production concepts, lead the idea of modern empire move to another virtual concept, based on existence and presence, spread and spill over, by providing different factors of construction like knowledge and technology, aimed to cooperate and not to conflict.

Keywords: Empire, power, history of international relations

مقدمة:

يبدو جليّا للمتفحص لفكرة الإمبراطورية منذ نشأتها وحتى الآن أنها تزاوج بين السلطة من جهة والنشاطين الاقتصادي والاجتماعي من جهة ثانية، ذلك ما يلوّح بمؤشراته في كتابات ثو ثيديديس وبولبيوس وابن خلدون ومكيافيلي ومنتسكيو وغيرهم، ارتبط قيام إمبراطوريات العصر القديم والوسيط على نظم أسرية تحتكر السلطة والقوة، وتتخّذ من الغزو نظرية للتوسع والبقاء وضمان الإمدادات البشرية والزراعية والضرائب، تعمّر لازمان مختلفة وتأفل بتراجع مكونات إنشائها وبقائها لأسباب داخلية وخارجية، معبّدة أسباب القيام والنشوء لسلطة أخرى من الداخل أو من الخارج.

كان للتطور الحاصل في النشاطات البشرية المتعلقة بالإنتاج محفزات توسعية لحيازة أسباب القوة المتنوعة، حيث كانت التجارة والصناعة دافعين أساسين لحركة الاستعمار والامبريالية، أسلوبا هيمناتيا استجابة لنزعة التوسع الإمبراطوري، التي لم تضمر أفكارها عند الأوربيين الذين أرادوا إنهاءها في أوربا وتبنيها في غيرها من البقاع على حساب أمم أخرى.

دون شك أخذ هذا الأسلوب الإمبراطوري حيزا معتبرا وأليما من تاريخ البشرية، لكن تراجع صوره في عصرنا لا يعني اختفاء وأفول فكرة الإمبراطورية، لأن الأمر لا يعدو أن يكون نوعا من التحوّل على مستوى السلطة والمقدرات والقوة، لأن الانحسار الإمبراطوري جغرافيا فسح المجال لامتداد إمبراطوري افتراضي، بتشكّل مكونات بناء تختلف في صورها ومضامينها عن مكونات البناء الإمبراطوري قديما.

للإحاطة بهذا الموضوع ارتأينا طرح الإشكالية التالية: **كيف تطورت مضامين فكرة وصور الإمبراطورية في العلاقات الدولية من الواقع إلى الافتراض؟**

للإجابة على الإشكالية تمت صياغة الفرضية التالية: **ارتبط تطور فكرة الإمبراطورية في العلاقات الدولية من الواقع إلى الافتراض، بتطور عوامل البناء الإمبراطوري والتحول في مفهومي السلطة والقوة.**

للإجابة عن هذه الإشكالية وفحص الفرضية أعلاه قسم العمل إلى 05 أجزاء:

1. **متغيرات القوة والبناء الإمبراطوري في الحضارات القديمة؛**
2. **عوامل الانحطاط الإمبراطوري؛**
3. **إرهاصات التحوّل في الفكرة الإمبراطورية من الواقع إلى الافتراض؛**
4. **عوامل بناء وتشكيل الإمبراطورية الافتراضية؛**
5. **إضافات الإمبراطورية الافتراضية للتعاون الدولي.**

1. متغيرات القوة والبناء الإمبراطوري في الحضارات القديمة.

تحتفظ منطقة الشرق الأدنى ببصمات أولى الإمبراطوريات الإنسانية، فالمنطقة تنفرد بعاملين رئيسين يميّزانها عن غيرها من فضاءات النشاط البشري المبكرة.أول العاملين هو الأرض، فالمنطقة كانت سباقة لممارسة نشاط الزراعة والرعي، والعامل الثاني، احتضانها لحجم بشري هائل يقارب ثلث سكان العالم القديم (غزو 2014، ص. 53).

من ثمة فهي تتوفر على أولى عوامل البناء الإمبراطوري، والتي تشكّل في الوقت ذاته محفزات غزو لغيرها أو عليها إذا توفر العامل الثالث أي السياسي، لكن المنطقة لم تكن مدركة لمقدراتها في التوسع، فكانت ضحية لتوسيع القبائل الأشورية شديدة البأس والمراس، التي استطاعت أن تهيّمن على المنطقة وشرق المتوسط، موسعة بذلك دائرة العمران والوعاء البشري والموارد الضريبية.

لكن سلطة أشور لم تستفيد من واقعها الجديد لإرساء قواعد الحكم والأمن والاستقرار، فكان لتباين القوميات والإبقاء على عمليات الغزو متواصلة نصيبا من عوامل تقويض أركانها وانشطار رقعتها الجغرافية بين 612 و609 ق م (غرو، 2014، ص. 57).

تشكّل آشور أول تجربة فعل إمبراطوري وفشل في بناء إمبراطورية في آن واحد، وهو الواقع الذي استفاد منه الفرس في غزوهم لبلاد ما بين النهرين التي انحصر حكمها في البابليّن، إذ سلك الفرس بقيادة قورش مفاهيم مختلفة في التوسع والغزو، تقوم على المكوّن الثقافي والديني للفرس (عبد الرضا 2015، ص. 77). واحتفاظ السكان، بقيمهم ونظمهم وعمرانهم ما داموا يدفعون الضريبة ويدعمون الجيش(هانسون، 2014، ص. 27).

لكن الإفراط في التوسع وتواجد الكثير من التخوم المنكشفة، وبلوغ متطلبات الأمن والاستقرار حدا لم تعد الإمبراطورية قادرة على استيفائه، كانت بداية التراجع بعدما عمرت لقرون كمركز للعالم بتعبير هيرودوت (غزو 2014، ص. 60)، فكانت عوامل سقوطها بواعث قوة للمتربص بها – الاسكندر المقدوني- الذي استطاع أن يستفيد من العالم الإغريقي في نظمه حكمه وفنونه العسكرية والقتالية، وتمكن من إخضاع العالم الفارسي " مركز العالم" والاستفادة من أوعيته البشرية والضريبية، لكن طموحات القائد اللا متناهية، كانت محدودة عند قادة جيشه وضباطه الذين لم يكن حلمهم أكثر من مركز العالم بعد موت الاسكندر سنة 323 ق م (كاتوزيان 2014، ص. 59).

كانت كل من التجربة الفارسية والهلينيه في بناء الإمبراطورية قد استفادت منها شعوب وقبائل أخرى يحذوها الطموح نفسه، أحداهما في أقصى الشرق ويتعلق الأمر بالإمبراطورية الصينية التي أسستها سلالة تشين والتي بنيت تقريبا بنفس عوامل التشكيل سالفة الذكر (التوسع والإخضاع والقوة العسكرية والضريبة وبحضور قوي لمكونات ثقافة سلالة تشين)، وكانت الثانية في غرب المتوسط، ويتعلق الأمر بالإمبراطورية الرومانية التي كانت تطمح في حيازة أسباب القوة والتفوق تدريجيا، خاصة أنها محاطة بقوتين متوسطيتين هما الهلينيون والقرطاجيون، اقتنع مؤسسوها أن صنع مقدرات القوة لن تكون إلا بالغزو والتوسع لحيازة المزيد من الأراضي في غرب المتوسط على ضفتيه الشمالية والجنوبية للفوز باحتياطي مهم للغاية من المقاتلين المتطوعين والمرتزقة، وثروات منجمية وفلاحية معتبرة جدا (غزو2014، ص. 66)، وعلى الرغم من سياسة الرومنّة إلا أن الرومان

كانوا قد أولوا الثقافة الإغريقية احتراما واهتماما كبيرين، وشكّلت إحدى مكونات بناء الإمبراطورية، وللتمكين وإحكام الهيمنة على الفضاء المتوسطي برمته، كان لزاما على روما إنهاء المنافسة فيه، وذلك ما تم بعد تدمير قرطاجة.

يكمن سر التفوق الروماني في التوليفة الحاصلة بين القائد السياسي والقائد العسكري والاستنفار والتعبئة للشعب والشعوب المنضوية وحوكمة الموارد الفلاحية والضريبية، وتميّز وتفرد المقاتل الروماني (مونتسكيو 2011، ص. 43)، لكن الأزمات السياسية الداخلية المبنية على الإقصاء والمؤامرات وكذا الأخطار الخارجية التي تهدّد الإمبراطورية من الشرق والشمال وتسّرب الشقاق في المكونات الاجتماعية للإمبراطورية، ليبدأ تراجع الرومان في حوض المتوسط لصالح القوى الإسلامية لأنه لم يتمكن أي قوى مسيحية رغم وجود الإمبراطورية البيزنطية من تعويض الفراغ الاستراتيجي الذي تركه الانهيار الروماني.

بعد هذا العصر الذي ميزه صراع إمبراطوري محتّدم في قلب العالم القديم، صعد العامل الديني كأحد المكونات الجديدة في الفكر التوسعي الإمبراطوري ونقصد بذلك أساسا ظهور رسالة الإسلام التي ستنقل وتُنشر في الفضاءات الجغرافية والاجتماعية التي عرفت التطاحن الحضاري والإمبراطوري سابقا، والتي ستصدم بالإمبراطورية البيزنطية حاملة لواء النصرانية كدفاع متقدم أوربي مسيحي في وجه التوسع الإسلامي، الذي سيواجه بدوره صعوبات جمة في بسط النفوذ والحفاظ على الأمن والاستقرار وجباية الضرائب، ليقبل العالمان – الإسلامي والمسيحي- على صولات وجولات من الصراع (الحروب الصليبية) دينية المظهر ودنيوية الباطن والمضمون، في محاولات أوربية متكررة لصد التوسع الإسلامي واستعادة المجد الضائع للأمة الرومانية.

بسقوط آخر إمبراطوريات الغرب المسيحية سنة 1453م أصبحت الدائرة على أوربا من طرف الإمبراطورية العثمانية الحاملة للواء الخلافة الإسلامية، والتي بدورها استفادت من مقومات البناء الإمبراطوري المعروفة منذ العصر القديم، من خلال الجغرافيا والقوة العسكرية والإمدادات الضريبية الضخمة، يضاف لها العامل الايديولوجي (الديني)، وتزامن ذلك مع تحولات إستراتيجية وفكرية وسياسية في أوربا تؤسس لمرحلة تحوّل مهمة جدا في تاريخها، لكن ذلك لم يمنع تقدم الزحف العثماني الذي جعل ملوك أوربا ومؤسساتها الدينية تعيش حالة طوارئ حقيقية لعقود طويلة، وهو السياق الوحيد الذي وحد أوربا (المشتتة والمتصارعة) ضد المسلمين (كنيدي 1994 ص. 22).

إن التحوّل الحاصل على مستوى أوربا، سيكون له مفعولا وتأثيرا كبيرين على الفكر السياسي في القارة وفي العالم فيما بعد، إذ تزامن التحوّل في السلطة وسياقات داخلية وأخرى خارجية مميزة ساهمت في العمل على إضعاف الأعداء في الخارج (المسلمون على وجه الخصوص)، وبناء أنظمة إمبراطورية أسرية، في الداخل انكبت على إضعاف دور المؤسسات الدينية والإقطاعية.

لكن التطورات المختلفة المتسارعة في أوربا (سياسية، اقتصادية، ثقافية) أسست لنظم جماعية في العلاقات الأوربية البينية تقوم على مبدأ السيادة القومية (بادي 2016، ص. 10)، هذه الدول التي أرادت أن تقوّض النظام الإمبراطوري في أوربا لضرورات علائقية سياسية ودبلوماسية، أبقت على أفكاره من خلال تحوّل أنظار الدول الأوربية لإحيائه خارج القارةّ والمتمثل إجمالا في الحركة الاستعمارية الأوربية وليدة النهضة والكشوفات الجغرافية ثم الثورة الصناعية، وهي المرحلة التي تغيرت فيها الكثير من عوامل بناء وتشكيل الإمبراطوريات الاستعمارية، التي احتفظت بعوامل الغزو والتوسع لكن بقوة عسكرية وعدة جبارة ومتطورة،

وعرفت صور الاستيطان والاستغلال إحياء للأمجاد الإمبراطورية في أوربا وبناء أمجاد جديدة للدولة الاستعمارية القومية، بوضع المستعمرات المترامية (الأرض والإنسان) في خدمة هذه الإمبراطوريات التي قامت على سياسات القهر والإبادة.

2. عوامل الانحطاط الإمبراطوري.

تكاد تشترك جميع الإمبراطوريات سابقة الذكر في عوامل البناء والنشوء، في مركز العالم الفارسي أو العالم الهلّيني وإمبراطوريات سلالات الصين المترامية والإمبراطورية الرومانية ذات التميّز، جميعها اتخذت من عمليات الغزو والتوسع وبناء الجيوش الجبارة وأنظمة الحكم المستبدة واستغلال موارد الأرض والضرائب ركائز جوهرية لبناء الملك وتوسيعه، واللافت أن جلّها تتشابه أيضا في عوامل التراجع والسقوط، الذي قد يرتبط بمسببات داخلية سياسية واجتماعية وثقافية، وعوامل خارجية عادة ما تنحصر في عمليات غزو وتحالف ضدها، تؤدي في النهاية إلى انقسامها واضمحلالها لصالح كيانات سياسية أخرى.

يقول ابن خلدون (غرو 2014، ص. 79) "هل الإمبراطوريات وآليتها في جمع الثروة وتكديسها ضروريتان لرفاه الشعوب" أي ما مدى انعكاس الأوعية الضريبية على الابتكارات والتطوير والإنتاج والعمران والثقافة، لإدامة بقاء الإمبراطورية وتوسعها واستتاب أمنها واستقرارها لصنع المزيد من عوامل القوة. الأكيد يكون ذلك قد حصل في بعضها وغياب عن الأخرى، وشكّل ذلك مدخلا للتدهور الحضاري والاجتماعي والانحطاط العام، وما ينجّر عن ذلك من تطاحن داخلي وانكشاف خارجي يقوّض مقدرات الإمبراطورية ويجعلها عاجزة على مواجهة الأخطار والمجاعات والأوبئة التي قد تهدد أهم عوامل البناء الإمبراطوري (الحجم السكاني) وهو عامل عرفته الكثير من حضارات الشرق الأدنى وحوض المتوسط (غرو 2014، ص. ص. 80-81).

يضاف إلى ذلك تسلل الضعف والفساد إلى مؤسسات القوة في الإمبراطورية (القيادة السياسية والمؤسسة العسكرية)، ويقابلها تربص الأعداء والغزو الأجنبي، وهي صور ومشاهد عاشتها وعرفتها الكثير من الحضارات في الشرق الأدنى والمتوسط مما يفقد الإمبراطورية بنيانها وتماسكها، قد ينطبق ذلك على الإمبراطورية الرومانية عندما وصفت بـ "الحكومة التي تسيطر عليها الثروة، وطبقة حاكمة لا تستطيع فعل أي شيء إزاء الفضائح السياسية المتكررة، لأنها مخدرة، وجمهور يتلهّى بسباق عربات الخيل وعروض قتال العبيد لتسلية نفسه" (بيرمان 2010، ص. 21).

كما يشكّل اضمحلال إيرادات الإمبراطورية من الثروات والضرائب والجباية ضربة قاسمة لحركية التواصل والاستمرار والإنتاج، فينعكس ذلك على مختلف الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية ومتطلبات المجتمع والمؤسسة العسكرية، وتجد الإمبراطورية نفسها عاجزة عن الإيفاء بمتطلبات المجتمع والجيش والحروب، أي بلوغ الإمبراطورية مستويات تصبح فيها قدراتها في مكونات الإنتاج والقوة والثروة المتاحة اقل بكثير من المتطلبات والطموحات، في هذه اللحظة تبدأ المتاعب تتفاقم وتتضاعف مستنزفة لقدرات الإمبراطورية وناخرة لركائزها، لتبدأ في التآكل من الداخل جرّاء الأزمات المتصاعدة، مما يعرّض هيبة الإمبراطورية وجبروتها للاهتزاز، معلنة لأعدائها عن بداية مغادرتها لقمة المجد، محفزة للأطماع فيهم للنيل من كبريائها.

3. إرهاصات التحوّل في الفكرة الإمبراطورية من الواقع إلى الافتراض

شكّلت أنماط تحوّل الإنتاج الاقتصادي من الاعتماد المفرط على إنتاج الأرض الفلاحي إلى استغلال ثروات الأرض ومواردها في التصنيع، نقطة تحوّل لافتة في تطور نشاطات الإنسان المتعلقة بالإنتاج، واثر ذلك بطريقة مباشرة وغير مباشرة في تحوّل مفاهيم السلطة والنظم السياسية والقوة، دفعت بدورها إلى إعطاء النظام الدولي "الأوروبي أصلا " دفعا ليعرف مفاهيم جديدة في التواصل والعمل الدبلوماسي والعلاقات الدولية السياسية والاقتصادية (كيندي 1994، ص. 211).

إن تسّارع عمليات التصنيع والإنتاج، أوجدت واقعا اقتصاديا أوربيا ودوليا جديدا من خلال تطوّر أنماط الإنتاج كما ونوعا، وتراكم رؤوس الأموال واتساع الحركة التجارية عبر المحيطات والقارات، المستفيدة في وسائل الاتصال والنقل من التقدم التقني والعلمي، الأمر الذي فتح باب التنافس الأوروبي على الكثير من بقاع العالم الزراعية والغنية بالموارد الطبيعية الخام.

أسهمت هذه التغيرات في التأسيس لميلاد تنظيم دولي جديد، يختلف عن صوره ومشاهده الأوروبية الأولى المثقلة بالصراع والاقتتال (كينيدي 1994، ص. 211) لم تكن مؤتمرات أوربا (الكونسرتيوم) وقممها لإحلال السلام في أوربا (بادي2016، ص. 25) لحسم قرون من الصراع والتطاحن والهيمنة الإمبراطورية، (حصل خلال القرن الفاصل بين مؤتمر فيينا واندلاع الحرب العالمية الأولى وميّزته حروب قليلة ومتقطعة وضعيفة الحدّة)، في حقيقة الأمر، إلا عبارة عن تحوّلات فكرية وإستراتيجية في الإبقاء فكرة الإمبراطورية، بتحويل ميدانها وفضاءاتها إلى خارج أوروبا، لتتشكّل تدريجيا إمبراطوريات استعمارية عظمى قامت على الاستعباد والإبادة والاستغلال، مستفيدة في ذلك من تطورها وتفوقها العسكري (قرم 2011، ص. 24) تعدى الأمر إلى تجنيد المستعمرات وشعوبها لتموين حروبها المتقطعة في أوروبا لوضع ترتيبات لسلّمية الأحداث وهرمية ميزان القوة في أوربا وفي العالم فيما بعد.

تضاف إلى ذلك حركية القوميات للوحدة والتحرر في جنوب القارة ومنطقة البلقان، شكلت جملة الأحداث هذه المتسارعة المبنية على التنافس الذي اتخذ من التطور الصناعي والعسكري وبناء الجيوش، وقودا أدى إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى (كيسنجر 2015، ص. 85)، أوروبية بالأساس وأقحمت فيها أمم أخرى من خارج القارة، إن الحرب العالمية الأولى كحدث مروع وعظيم، مهّد لمراجعة النظام الدولي وأسس لمرحلة جديدة، يراد من خلال التمكين للأفكار المثالية وسيادة القانون في العلاقات الدولية وبداية ظهور المؤسسات العالمية لرعاية الأمن والسلم الدوليّن وتشجيع التعاون الدولي، وإن كان من زاوية ما يعبّر عن الصعود والانتشار الأمريكي كسر ا للعزلة وترويجا لأفكار عالمية.

فهي تبعث بإشارات صريحة وضمنية لمستقبل العلاقات الدولية بعد الحرب (عبد الحكيم 2005، ص. 83) ويشكّل ذلك بداية رسم لنمطية غربية، صيغت على خلفية تأخذ بعين الاعتبار الأيديولوجية الغربية في أبعادها السياسية والاقتصادية والأخلاقية، للتمكين لروح الفكر الغربي ومضامينه من تأطير وبناء مؤسسات النظام الدولي والإدارة الدولية (عبد الحكيم 2005. ص155).

إذا هناك نظرة غربية هيماناتية على العالم، صيغت وصودق عليها في غياب معظم دول العالم، صنعت لها الأحداث التاريخية الكبرى اللاحقة كالحرب العالمية الثانية والحرب الباردة تبادلا للأدوار

الإمبراطورية، التي بدأت تتراجع في أشكالها الاستعمارية المباشرة لتتقمص صورا وأنماطا أخرى، بنيّت على النفوذ والتحكم والهيمنة في حركية علاقات عالمية، تزاوج بين الصراع والتعاون، هذا الأخير الذي سيصنع آلية الانتشار العالمي، مستفيدا من التحوّلات المعقدة في مفاهيم السلطة والقوة والإنتاج.

4. عوامل بناء وتشكيل الإمبراطورية الافتراضية

قدمت لنا التجارب الإمبراطورية منذ القديم ومن العصر الصناعي، أن أعلى الطموحات الإمبراطورية تكمن في حيازة القوة العسكرية والبشرية للتوسع وإخضاع الآخرين للاستجابة لأهداف اقتصادية وسياسية، لكن اللافت بعد عصر ما بعد الكولونيالية أن العلاقات الدولية الاقتصادية قد شهدت تغيّرات جذرية في عوامل الإنتاج وأسواق المال والسلع والخدمات، رسخت تنافسا وتقسيما عالميا للعمل والإنتاج والأسواق، أي صعود رؤى توسعية وهيمناتية اقتصادية قبل أن تكون عسكرية، بمعنى رؤية العالم بمنظار جديد مغاير تماما لما كان يحصل لدى الإمبراطوريات القديمة (عبد الحكيم 2005، ص. 72) كان هذا حال القوى الكبرى التي قسمت العالم فيما بينها إلى أسواق ومنافع مناطق نفوذ، على غرار الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي سابقا، وقوى أخرى أوروبية وأسيوية، شكّلت في مجموعها إمبراطوريات اقتصادية ومالية وقوى معمارية في العلاقات الدولية والتنظيم الدولي ومؤسساته، تجمعهم النزعة البراغماتية على الرغم من تباين أيديولوجياتهم وهوياتهم الفلسفية (بادي 2016، ص. 51).

شكّلت الجغرافيا القومية فضاءات رئيسة لصنع مكوّنات القوة والتفوق لتحقيق الاحتياجات القومية، ومن ثمة التوجه نحو العالم الخارجي. إذ كانت السمة البارزة في طبيعة ذلك التعاون تقوم على احتكار التكنولوجيا وتصريف فائض الإنتاج، وهو الأمر الذي يميّز التخصص في الإنتاج وفيصنع رفاه القوى الاقتصادية الكبرى المكوّنة لمركز للاقتصاد العالمي على حساب الأطراف الفقيرة التابعة.

إلى غاية عقود قليلة ماضية من الزمن اقتصرت عوامل القوة والبناء الإمبراطوري في القوى المادية، التي لم تعد تصنع الفارق وعوامل التفوق والبقاء بصعود متغيرات جديدة للقوة والتوسع والانتشار، وتتمثل أساسا في منتجات الفكر والمعرفة (روزكرانس 2001، ص. 4)، مكرّسة لعلاقات دولية اقتصادية وسياسية جديدة، فالتدفقات المتسارعة بين الدول بعد نهاية الحرب الباردة بعد صعود المتغير الاقتصادي بقوة في العلاقات الدولية، ميّزتها المنتجات التقنية والفنية والمعلوماتية ورأس المال المادي والبشري، وهي العناصر التي بدأت تعلو وتسمو التعاملات والتبادلات الدولية على حساب عناصر الإنتاج المرتبطة بالأرض مباشرة، كما كان عليه الحال في بنى الإمبراطوريات القديمة.

إن طموحات التوسع والتفوق والريادة اليوم، لم تعد في حاجة إلى الغزو العسكري والضم القسري للمساحات الجغرافية كمطلب من المطالب التي ارتبطت بنشأة الإمبراطورية قديما، فعوامل الإنتاج ومكونات القوة الاقتصادية والقومية لم تعد كلية بمفاهيم القوة في الأزمنة السابقة، بل أصبحت تقوم وتبنى على عناصر أخرى تتمثل في نشاطات فكرية وتقنية وخدماتية ومعرفية تتم على المستوى القومي ثم توّجه لتنتج في أكثر من بلد، ليتمّ تحويلها إلى منتجات تقنية وتكنولوجية وثروات مادية وقيم مضافة، وتشبّه العملية بالرأس والجسم، حيث يمثل الرأس الدول المعنية بالتصميم ويمثل الجسم الدول المعنية بالإنتاج (روزكرانس 2001، ص. viii).

إن انتشار هذه الظاهرة وتوسعها يصبح بإمكان الدولة المنتجة للمعرفة أن تكون متواجدة في أكثر من منطقة من العالم، دون المرور بمتطلبات التواجد القديمة (الغزو والاحتلال)، فالظاهرة اليوم تفوق بكثير طبيعة ونشاطات الشركات المتعددة الجنسيات، والتي أوحت بصوّرها إلى الصيغ العالمية الحالية المتشابكة من التعاون والإنتاج التي لا تحتاج إلى ارتباط سياسي أو قومي بين المصدّر لعناصر الإنتاج والمحوّل لها إلى منتجات استهلاكية، كون هذا الأخير يتوفر على مقومات إنتاج لم تعد تتوفر عليها الكثير من القوى المنتجة للمعرفة والخدمات والتكنولوجيا، كالمساحات الجغرافية رأس المال البشري (شوا2009، ص. 20) وتحفيزات الأجور المتواضعة والإعفاءات/التخفيضات الضريبية، ذلك ما يبعث على الانتشار والتواجد العالمي لدول من خلال تخصصاتها الإنتاجية ويصنع منها إمبراطوريات افتراضية، تجلب لها عائدات ضخمة من الإيرادات المالية، فقد تتحوّل دولة مجهرية جغرافيا (سانغفورة مثلا) إلى إمبراطورية افتراضية عبر تخصصاتها الإنتاجية المنتشرة في العالم، فظاهرة الإمبراطورية الافتراضية تشهد تنافسا حادا وتمددا سريعا، مكرّسة لمفاهيم جديدة في تحوّل السلطة والجيوبوليتك والتعاون والعلاقات الدولية.

5. إضافات الإمبراطورية الافتراضية للتعاون الدولي.

ظلت الدول الصناعية الكبرى لزمن طويل حريصة على تطوير مقدراتها من القوة بمفهومها الواسع في إطار حدودها الجغرافية، سعيا منها لتحقيق متطلبات شعوبها، قبل أن توجه الإنتاج نحو الأسواق الخارجية رفعا لحصصها وإيراداتها المالية، بحثا عن صنع الرفاه وتراكم عوامل وعناصر القوة، عبر علاقات تعاونية تأخذ في الحسبان المصالح القومية بالدرجة الأولى، هذا التعاون وعلى الرغم من الجهود المبذولة من طرف المجتمع الدولي ومؤسساته الدولية لتوسيعه وتعميقه، إلا انه لم يعرف الانفتاح المأمول، لارتباطه بنوازع قومية، إلا في العقود المتأخرة التي شهدت تحوّلات عميقة في مفاهيم السيادة والتعاون والإنتاج، التي تزامنت وارتفاع سرعة وحجم التدفقات الدولية (ديفان 2016، ص. 39) متجاوزة في ذلك الأنماط الكلاسيكية في التبادل والتعاون، وحتى مضامين مؤسسات التنظيم الدولي في هذا الشأن، كون معظم مواثيقها قد صيغت وفق خلفيات فكرية وأيديولوجية وليدة سياقات تاريخية معينة.

لقد تم اختراق نادي القوى الصناعية والاقتصادية الكبرى، وأصبحت دول كانت مغمورة تصنع لإنتاجها توسعا وانتشارا كبيرين (سانغفورة، هونغ كونغ، كوريا الجنوبية، تايوان) (روزكرانس2001، ص. iiiv) من خلال مساهماتها المعتبرة في الإنتاج المعرفي، المعلوماتي، التقني..في الناتج العالمي، متخذة من ذلك تواجدا متخصصا عبر نسج شبكة واسعة من العلاقات التعاونية في صورها وصيغها ومضامينها متجاوزة في ذلك إقليم السيادة القومية نحو الفضاء الإمبراطوري (هاردت ونيغري 2002، ص. 28)، المتمثل في الأقاليم المستقبلة للاستثمارات، والتي تتوفر على البيئة الملائمة سياسيا وامنيا واقتصاديا.

الامتداد الكبير والتشابك لهذا النوع من الإنتاج سمح بظهور مفاهيم جديدة للتعاون تقوم على المنافسة واقتسام المكاسب والإرباح، وتؤهل الأقاليم المستقبلة لهذه الاستثمارات من اكتساب المعارف والمهارات التي تؤهلها لاحقا لتكون بدورها منتجة للمعرفة (الصين مثلا) والتي ستخطو شيئا فشيئا في تتبع نفس المسارات في تكوين إمبراطوريتها الافتراضية، مستفيدة في ذلك من تطور وسائل النقل وتكنولوجيا الإعلام والاتصال (روزكرانس 2001، ص. x).

تشهد الإمبراطوريات الافتراضية اليوم نموا مطردا في انتشارها ومؤسساتها وإنتاجها بوتيرة تفوق بكثير الاقتصاديات التي تتم داخل الحدود القومية للدولة، كما تتيح للأقاليم المستقيلة للاستثمارات نموا لا يقل مستوى وحجما عن نظيره المحقق للإمبراطورية الافتراضية، هي صيغ تعاونية آخذة في التوسع والترابط، وتصنع المكاسب والرفاه وتوثق أكثر التعاون الدولي، وتؤسس لتكون كبديل عن النزاعات العسكرية ونزعة التوسع الإقليمي التي كانت سمة العلاقات الدولية لوقت ليس بالبعيد، ويحل التدفق الاقتصادي (المعرفة، رأس المال، عوامل الإنتاج، التكنولوجيا، القوى البشرية الماهرة والمؤهلة) (روزكرانس 2001، ص. 4) محل التدفق العسكري الذي لا يزال في أكثر من منطقة من العالم.

تصنع الإمبراطوريات الافتراضية تمددها من الاستقطاب العالمي لمنتجاتها المعرفية والتكنولوجية والخدماتية عالية التفوق، مستفيدة في ذلك من التسهيلات والامتيازات التي تقدمها الدول المستقطبة لمثل هذه الشراكات والصيغ التعاونية والاندماجية، أملا في اكتساب وتوطين هذه المعارف والتكنولوجيات لاحقا، تمكّنها من توسيع شبكات الترابط الإنتاجي محليا وإقليميا، بهدف تحقيق نتائج إستراتيجية مزدوجة، تحقق للمستقطب النمو والتطور والمكانة في سلم القيم الإنتاجية، وتنجز للإمبراطورية الافتراضية المزيد من القوة والتمدد، ورفع حصصها في الإنتاج العالمي، ومن ثمة القوة والتأثير في حركية التعاون الدولي والعلاقات الدولية، الأكيد أن الصيغة التعاونية الجديدة في إطار الإمبراطوريات الافتراضية لن تحل كل مشاكل التعاون الدولي ولا تنهي الصراعات والنزاعات، لكنها من خلال الواقع تبدو واعدة لتعاون دولي متميز.

خاتمة:

في ختام هذه الدراسة استخلصنا النتائج التالية: إن فكرة الإمبراطورية في نشأتها كانت وليدة سياقات واقعية، جيوسياسية وسيكولوجية؛ الأخذ بأسباب القوة وتعظيمها كمتطلبات أمن وبقاء للإمبراطورية؛ كانت الفكرة الإمبراطورية في نشأتها تكريسا لمبادئ حكم قائم على القوة والعنف والاستبداد؛ مضامين فكرة الإمبراطورية في صورتها الكلاسيكية سادت لوقت طويل لبطء وتيرة التطور الحضاري ولعلو فترات الصراع على السلم والاستقرار؛ إن التحوّلات التي طرأت على مفاهيم الحكم والسلطة والقوة التي شهدتها أوربا لاحقا أبقت على فكرة الإمبراطورية لأغراض استعمارية؛ صعود الفكر المثالي والليبرالي ومأسسة النظام الدولي في القرن المنقضى شكّل مرحلة تحوّل عميقة في فكرة الإمبراطورية؛ سرعة تطور الإنتاج القائمة على المعرفة والعلم والتقنية والأعلام والاتصال، عجلت بنقل فكرة الإمبراطورية من نمطها الكلاسيكي إلى نمط افتراضي يختلف عن سابقه في الدوافع وعوامل البناء؛ يُتوقع من النمط الإمبراطوري الافتراضي في العلاقات الدولية أن يكرّس مفاهيم ومبادئ تشجع العلاقات التعاونية والتطور على حساب العنف والصراع.

قائمة المراجع:

1- ايمي، ش.(2009). عصر الإمبراطورية، كيف تتربع القوى المطلقة على عرش العالم وأسباب سقوطها، (ترجمة: صالح محمود، م)، المملكة العربية السعودية: العبيكان للنشر.

2- بول، ك. (1994). نشوء وسقوط القوى العظمى، (ترجمة: البديري، م). عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع.

3- برتران، ب. (2016). لم نعد وحدنا في العالم "النظام الدولي" من منظور مغاير، (ترجمة: جان ماجد، ج). بيروت: مؤسسة الفكر العربي.

4- جورج، ق. (2011). تاريخ أوربا وبناء أسطورة الغرب، (ترجمة: رلى، ذ). بيروت: دار الفارابي.

5- هوما، ك. (2014). الفرس، إيران في العصور القديمة والوسطى، (ترجمة: احمد حسن، م). بيروت: جداول للنشر والترجمة والتوزيع.
6- هنري، ك.(2015). النظام العالمي، تأملات حول طلائع الأمم ومسار التاريخ، (ترجمة: حتكر، ف)، بيروت: دار الكتاب العربي.
7- مايل، هـ وأنطونيو، ن.(2002).الإمبراطورية، إمبراطورية العولمة الجديدة، (ترجمة: فاضل، ج). الرياض: العبيكان للنشر.
8- مونتسكيو.(1748). تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط، (ترجمة: العروي، ع)، المملكة المغربية: المركز الثقافي العربي.
9- موريس، ب.(2010). انحطاط الحضارة الأمريكية، (ترجمة: الشرقي، ح)، دمشق:دار المدى للثقافة والنشر.
10- منصور، ع.(2005). الإمبراطورية الأمريكية، البداية..والنهاية، دمشق: دار الكتاب العربي.
11- عبد الرضا حسين، ط، وآخرون.(2015). موسوعة الفكر السياسي عبر العصور، بيروت: دار الروافد الثقافية، ناشرون.
12- فيكتور ديفر، هـ.(2014). صانعو الاستراتيجيات القديمة من الحروب الفارسية إلى سقوط روما، (ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية). أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية.
13- غابرييل مارتينيز، غ.(2014). موجز في تاريخ الإمبراطوريات، كيف تنشأ وكيف تضمحل، (ترجمة: إبراهيم، ع)، بيروت: دار الكتاب العربي.
14- غيوم، د.(2016). عالم أوحد، تطور التعاون الدولي، (ترجمة: نصير، م)، بيروت: مؤسسة الفكر العربي.